تدمر والشرق

بحث في مصادر الحضارة التدمرية

بقلم هنري سيريغ

تعريب الدكتور جورج حداد *

بالرغم من ان تدمر ذكرت في نصوص مسمارية متعددة يرجع اقدمها (١) الى عصر سرجون الاول الآشوري فانه يظهر انها بقيت قرية بسيطة حتى منتصف القرن الاول ق . م وقد كان نموها المفاجيء الذي جعلها من اكبر مدن الشرق مصادفاً لزمن ازداد فيه الطلب في رومة وممتلكاتها على بضائع الشرق النفيسة كما أن ذلك النمو حصل بفضل السياسة الرشيدة لتجارها واصحاب قوافلها اذ عرفوا كيف يحافظون على النظام في البادية بين مدينتهم وبين مصانع بلاد الرافدين الجنوبية ومستودعات بضائعها . ومنذ ذلك الوقت اصبحت القوافل

* تلي هذا البحث في الاجتماع المشترك الذي عقدته جمعية الدراسات اليونانية وجمعية الدراسات الرومانية في اكسفورد في آب عام ١٩٤٨ ونشر في المجلد الاربعين من مجلة الدراسات الرومانية في لندن عام ١٩٥٠ وقد وافق المؤلف على ترجمته ونشره بالعربية .

(١) يظهر أن اقدم اشارة الى تدمر ظهرت على لوحة من كولتبه Kultepe وهي تذكر شخصاً اسمه بوزور عشتار التدمري Puzur - Ishtar في عهد سرجون الاول في اوائل الالف الثاني : راجع مقال ج . آيسر وليفي بالالمانية عن « الوثائق القانونية الآشورية القديمة من كولتبه » في مجلة الجمعية الالمانية للشرق الادنى مجلد ٣٥ (عام ١٩٣٠) عدد ٣٠٣ . قارن ذلك مع كتاب اغناس جلب Gelb بالانكليزية « الحوريون والسوباريون » ص ٦١ ، ومع مقال ليفي في النشرة السنوية للكلية العبرية مجلد ١٩ (١٩٤٦) ص ٤٣٢ . وقد ذكرت تدمر ايضاً في رسالتين غير منشورتين من ماري في عهد حمورابي كما تلطف السيد اندره بارو Parrot واخبرني . راجع ايضاً بخصوص النصوص الحديثة المسمارية بشأن تدمر مقال ادوار دورم Dhorme بالافرنسية في المجلة التوراتية لعام ١٩٢٤ ص ١٠٦ وما بعدها .

قادرة على عبور بادية الشام بدلاً من المرور قرب اطرافها وهكذا عادت حركة نقل البضائع على التدمريين بارباح هائلة (٢) . ولذا فان البادية المجدبة الواسعة التي قد تبدو بنظرنا نحن الاوربيين كحاجز ، لم تكن بالواقع كذلك وانما بالعكس كانت صلة الوصل مع بلاد مابين النهرين ، كما كان البحر يصل البندقية بواسطة سفنها التجارية بموانىء الشرق الادنى . وبالحقيقة فان مقارنة تدمر بمدن العصور الوسطى المشهورة وبمدن عصر النهضة (مثل البندقية وانڤرس وبروج ولشبونة وغيرها) تساعدنا في نواح متعددة في فهم ازدهارها العظيم المفاجىء وانحطاطها المفاجىء ايضاً . ومنذ اليوم الذي وضع فيه الامبراطور اورليانوس حداً لتسلط تدمر على البادية وطرقها ، فان طرق التجارة وجب أن تتحول بحيث عادت القوافل ثانية الى اتباع طريق الفرات حول الصحراء وبدأت حلب وخالكيس (قنسرين) بالازدهار .

ويظهر ان تدمر كانت تتجه ، بعد ان اصبحت مدينة ، نحو الامبراطورية الفرتية التي كانت تسيطر حينذاك على بلاد ما بين النهرين اكثر من اتجاهها نحو سورية الغربية . ومعلوماتنا في هذا الشأن وان كانت قليلة الا انها تبدو واضحة جداً . فالمؤرخ ابيانوس (Appian) (٣) يوضح لنا بان الفرتيين بعد ان كسروا جيوش كراسوس بذلوا نشاطاً دبلوماسياً واسعاً في سورية التي كانت لا تزال تضطرب بسبب الفوضى التي تلت انحلال الدولة السلوقية . وكان قد استولى امراء وحكام مختلفون على كثير من المدن وكان يشجعهم الفرتيون الذين قبلوهم اخيراً كلاجئين عندما طردهم الرومان . وقد يجوز ان انطونيو اراد ان يقاوم مثل هذه الدسائس عندما حاول الاغارة على تدمر ونهبها مع جماعة من الفرسان في عام ٤١ ق م . مع العلم ان امله في الربح ربما كان السبب الاول في هذه المحاولة . على ان التدمريين الذين غالباً لم تثقلهم بعد كثرة الكماليات الزائدة تمكنوا من الهرب بكنوزهم وطلبوا الامان على الضفة اليسرى للفرات التي كانت تخضع لحكم الفرتيين . ويضيف ابيانوس الى ذلك عبارة لها اهميتها وهي ان هذه الغارة كانت من الاسباب التي دعت الامبراطورية الفرتية الى اعلان الحرب فيما بعد على الرومان . ويتضح ان تدمر كانت غالباً متصلة بالفرتيين بصورة وثيقة وان هؤلاء كانوا يهتمون بتجارتها غاية الاهتمام . وبالفعل فان الاضطراب الذي كان يسود

---

(٢) راجع بشأن هذه التطورات خاصة ف . كومون Cumont في كتابه الافرنسي « حفريات دورا اورووبوس لعامي ١٩٢٢ - ٢٣ » . طبع باريس ، ١٩٢٦ ألواح ٣١ - ٣٨ .

(٣) راجع تاريخ ابيانوس الاغريقي « الحروب الاهلية » قسم ٥ ، فصل ٩ ، فقرة ٣٩ . قارن مع ما ذكر في مجلة سيريا Syria بالافرنسية مجلد ٢١ (١٩٤٠) ص ٣٣٤ .

سورية حينذاك وخاصة اثناء حروب رومة الاهلية لا بد أنه جعل التدمريين يميلون الى الامبراطورية الفرتية القوية ، خاصة في عهد ملك قوي مثل اوروديس الاول ، ويعتمدون عليها كحليفة اكثر من ميلهم الى جيرانهم الرومان في الغرب .

ولكن حتى قبل ان تظهر هذه الاحوال السياسية فانه يتضح ان سكان تدمر كانوا معتادين ان يوجهوا انظارهم نحو المدن التجارية الكبرى في جنوبي بلاد الرافدين . ومن المسلم به ان اسماء التدمريين المشتقة كلها تقريباً من جذور آرامية وعربية (٤) لا تظهر اتصالاً ببلاد بابل وان عباداتهم الوطنية تبدو مستقلة تماماً ، ولكن من جهة اخرى فان المجموعة الكبرى الوحيدة للآلهة الاجنبية في تدمر هي مجموعة آلهة بابلية ، حتى أن إله تدمر الرئيسي الذي كان غالباً اسمه الوطني بعل (بضم الباء ويكتب بالافرنجية Bôl) (٥) كان شبيهاً باله بابل العظيم بعل (ويكتب بالافرنجية Bel) وكان يعبد باسمه . وهذا يبرهن بالتأكيد ان سكان تدمر كانوا يعيشون على اتصال وثيق ببلاد بابل ويعتمدون عليها ثقافياً حتى في العصر الذي سبق ظهور تدمر كمدينة عظيمة .

على انه لم تمض مدة طويلة الا وبدأ الرومان بالاهتمام بتدمر لاسباب سياسية واقتصادية والآثار الاولى لوجودهم ترجع الى بدء حكم طيبريوس وهي تدعو للظن على الاغلب بان المدينة ضمت الى ولاية سورية (٦) .

ومن المستغرب ان لا يكون احد من التدمريين قد سمح بان يصور في لباسه الوطني . وقد يجوز ان ذلك ناتج عن ان الصور التي وصلتنا هي صور الاغنياء الذين اتبعوا الازياء الاجنبية . والامثلة الوحيدة التي لدينا عن اللباس الوطني مصدرها صور الآلهة (٧) التي احتفظت بها بصورة تقليدية خاصة في العبادات التي ليس لها صفة رسمية عظيمة اذ كان يرغب راكب الابل مثلاً ان يتصور الهه بلباس مألوف لديه على الاغلب . وهذا اللباس هو رداء بسيط عادة له اكمام ، وحلة تغطي الاطراف السفلى وتلف في اعلاها لترتكز على الخصر .

وطبقة التجار التدمرية تلبس ، بدون استثناء ، اللباس الاغريقي او الايراني . وهذا الاخير (انظر اللوح رقم ٢٥) بسراويله وردائه الذي يناسب الجسم تماماً يتصف به اللباس التدمري

---

(٤) راجع كتاب و. غولدمان Goldmann بالالمانية « اسماء الاعلام التدمرية » ، طبع ليبزك ، ١٩٣٥ . وكتاب ج. كانتينو Cantineau بالافرنسية « قواعد لغة النقوش التدمرية » ص ١٤٩ وما بعدها .

(٥) راجع كتاب و. و. بوديسين Baudissin بالالمانية « ادونيس واشمون » عام ١٩١١ ، ص ٣١٩ ، هامش رقم ١ ، قارن مع مجلة سيريا مجلد ١٤ (١٩٣٣) ص ٢٤١ .

(٦) راجع مجلة سيريا م ١٣ (١٩٣٢) ص ٢٦٦ وما يليها ، كذلك مجلد ٢٢ (١٩٤١) ص ١٦٩ وما يليها .

بصورة خاصة وهو في معظم الاحيان مزخرف بنماذج زخرفية غنية قد تبدو لاول وهلة كأنها مطرزة الا انها بالحقيقة محاكة في اللباس كما اظهرت البقايا المختلفة التي وجدت في قبور تدمر (٨). ومما يستلفت النظر انه بالرغم من ان اللباس شرقي فان جميع هذه العناصر الزخرفية تقريبا اغريقية كأزهار الاكانتوس (طابة الشوك) ، والاطراف المزخرفة المتموجة والزنابق وغير ذلك (٩). وعنصر واحد ليس باغريقي وهو عقد اللآلىء المستديرة التي سنبحث عنها بعد برهة. ووجود الزخارف الاغريقية على لباس شرقي بالطبع ليس خاصاً بتدمر وحدها ، وانما نجده على البسة ملوك الفرتيين مثلا كما يتضح من نقودهم (١٠) واننا لنجد هذه الزخارف حتى في الهند. فقد اكتشف السير جون مارشال في ماثورا Mathura الى جانب تمثال الملك كانيشكا (من القرن الثاني م) بقايا تمثال آخر (١١) تظهر فيه نماذج شبيهة بالضبط تقريبا بنماذج تدمر الزخرفية. فكيف يمكن تفسير هذا التصادف ، وهل وصل تأثير العالم الاغريقي الروماني الى وادي السند بطريق تدمر والخليج الفارسي ؟

هنالك برهان على الاقل يشير الى ناحية اخرى. فعقد اللآلىء المستديرة التي لاحظناها على البسة التدمريين يظهر ايضاً على الآثار التي وجدت في ماثورا في الهند وهكذا يؤكد العلاقة بين منسوجات المدينتين. على أن ذلك ليس بعنصر زخرفي من بلاد البحر المتوسط اذ لا يوجد نسيج اغريقي روماني قط يظهر هذا العنصر ولهذا يجب اعتباره مظهرا شرقياً خاصا. ونعلم ان الخليج الفارسي كان ولا يزال مركز مصايد هامة للؤلوء كما ان الفرس كانوا مشهورين في العالم الاغريقي بالبستهم المترفة المزدانة باللآلىء الاصلية. والاغلب اذاً أن النماذج التي حيكت في المنسوجات التدمرية والفرتية والهندية تقلد تلك الالبسة الفائقة في الترف. كذلك ذُكر ان الفرس كانوا يلبسون الالبسة المزدانة بالحجارة الكريمة ، ومن بقايا هذه العادة في تدمر ان سراويل بعض الحجاب والخدم (انظر اللوح رقم ٢٥) تظهر حجارة كريمة مربعة

(٧) راجع مجلة سيريا ، م ١٨ ، عام ١٩٣٧ ، ص ٤٦ .

(٨) انظر رسالة ر. بفيستر Pfister بالافرنسية « منسوجات جديدة من تدمر » . (طبع باريس ١٩٣٧) ص ٢٧

(٩) راجع مجلة سيريا م ١٨ ، عام ١٩٣٧ ، ص ١٧ ، ٣٥ .

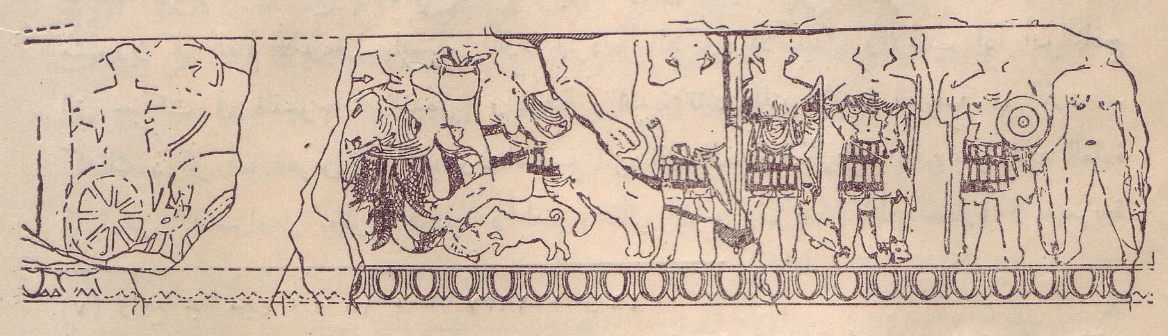
(١٠) انظر كتاب ج. دي مورجان de Morgan بالافرنسية « نقود بلاد فارس » لوح ١١ ، رقم ١١ و ١٢ ، راجع مجموعة بتروفتس Petrowicz في فهرس نافيل (مجلة آرس كلاسيكا عام ١٩٢٦) ، م ١٢ ، لوح ٦٦ .

(١١) مجلة سيريا ، م ٢١ عام ١٩٤٠ ، ص ٣٠٥ الخ .

بحجم كبير تتصل بصفوف من اللؤلؤ الصغير . (١٢) فالزخارف التي نحن بصددها اذاً هي مزيج اغريقي وفارسي . ويغلب انها تطورت في الحضارة الاغريقية الايرانية التي ازدهرت في جنوبي ما بين النهرين تحت الحكم الفرتي واقتبسها من هناك التدمريون من جهة وحكام ماثورا من جهة اخرى .

وهكذا فان دراسة اللباس التدمري تؤدي بنا الى نفس النتيجة التي نحصل عليها من دراسة تاريخ تدمر السياسي وديانتها وهي ان تدمر تبدو مرة اخرى بانها كانت تتجه ليس نحو انطاكية وانما نحو الشرق .

واللباس الاغريقي يظهر في تدمر بجانب اللباس الفرتي . وبعض النقوش البارزة ترينا شخصين من اسرة واحدة مضطجعين الواحد يلبس لباساً فرتياً والاخر لباسا اغريقيا (١٣) بلباس الرأس الديني او بدونه . لذلك لا يمكننا ان نعتبر احد هذين اللباسين خاصا بطبقة أو مهنة معينة او بقسم خاص من السكان . فالالبسة تظهر ذوق الاشخاص الذين لبسوها وزيهم ، واللباسان كلاهما يظهران على أقدم آثار المدينة . فمن اين اقتبس التدمريون لباسهم الاغريقي ؟ قد يكون من مدن سورية الغربية على أنه قد يجوز ان نعتقد بعد ان قلنا ماقلناه ، ان يكونوا قد اقتبسوه من بلاد مابين النهرين حيث كانت قوافلهم تحتك يومياً بالمدن والمستعمرات الاغريقية المزدهرة . على أننا سوف لا نتمكن من تقرير ذلك إلا بعد أن ندرس آثار النحت والبناء .



شكل ١ — تدمر : نقش بارز من معبد بعل . منظر جني (يمثل امرأة ينتهي القسم الاسفل من جسمها بأفاعي) يهاجمه فارس وراكب عجلة . والى اليمين عدد من الآلهة يراقبون الصراع .

---

(١٢) مجلة سيريا ، م ١٨ (١٩٣٧) ، ص ١٨ وما يليها .

(١٣) راجع مقال ه. انكهولت Ingholt في مجلة بيريتوس Berytus ، م ٥ (١٩٣٨) ، لوح ٣٧ رقم ١ ولوح ٤٣ رقم ٢ ، ولوح ٥٠ رقم ١ الخ .

إن أقدم بقايا النحت المؤرخة في تدمر تنتسب الى معبد بعل الذي خصص رسميا للعبادة في عام ٣٢ م (١٤) . وهناك نقش بارز مثلا (انظر شكل ١) يرينا إلهين يحاربان جنيا بينما نشاهد آلهة اخرى بجانبها وهي ترتدي اللباس الهلنستي الحربي وكلها واقفة وقفة جامدة ناظرة الى الامام . وتكرار الاشكال المتشابهة من هذا النوع كان يعجب به الفنان المصري القديم وكذلك الفنان الاغريقي القديم ، غير ان الفن الاغريقي الكلاسيكي قد علم النحاتين بان يجمعوا الاشكال بمجموعات دراماتيكية ، وهكذا فانه يصعب أن نجد شبيهاً لهذا النقش التدمري في سواحل البحر المتوسط بعد القرن السادس ق. م. وكذلك فان ترتيب المشهد نفسه في هذا النقش لا يقل غرابة عن مظهره ، إذ لا يمكننا أن نفهم بسهولة — وقد اعتادت نفوسنا على تقاليد الاغريق وعصر النهضة — كيف ان الآلهة الستة الواقفين يمكن ان يشاهدوا العراك بين الآلهين الآخرين وبين الجني بالرغم من انهم يتطلعون إلى الامام نحونا . وهنالك شبه غريب لهذا الترتيب في بعض القطع الفنية البيزنطية او الاتية من العصور الوسطى . والشكل رقم ٢ في هذا المقال مأخوذ من نقش بارز في كنيسة الارخنجلوس في كبادوكية (١٥) ويمثل تقديم العذراء مريم ويلاحظ هنا أيضاً ان المشاهدين مجموعون في جهة واحدة ويكادون يديرون رؤوسهم نحو المنظر الذي يفترض أنهم يشاهدونه الا انهم يظهرون باشارة أيديهم جموداً اقل مما تظهره الآلهة التدمرية وهي تشاهد النزاع .



شكل ٢ — نقش في كنيسة آرخنجلوس على كيلومترين جنوبي موقع جميل في كبادوكيا . يرينا هذا النقش البارز الكائن في كنيسة الدير تقديم العذراء من قبل حنة وبواكيم الى زكرياني الهيكل (مأخوذ عن كتاب جرفانيون بالافرنسية وعنوانه « الكنائس الصخرية في كبادوكيا » مجموعة الرسوم رقم ٣ ، لوح ١٥٦) .

(١٤) انظر كتاب ج . كانتينو Cantineau بالافرنسية « لائحة نقوش تدمر الاثرية » . الجزء ٩ (١٩٣٣) ، ص ١ .

(١٥) راجع كتاب ج . دي جيرفانيون de Jerphanion بالافرنسية « كنائس كبادوكية الصخرية » (طبع باريس ، ١٩٣٤) مجلد الصور ، لوح ١٥٦ .

وتمثيل الاشخاص على هذا الشكل قد لايمكن فهمه في سورية الغربية المتأثرة بالحضارة الهلينية لحد بعيد كما اننا نحن كذلك لانفهمه ، ولذا فان الفنان التدمري بالتأكيد لم يأخذ فنه عن هذه المدن . والنماذج التي تشبه هذه النماذج التدمرية يجب أن نبحث عنها في الشرق ايضاً . فقاعدة النظر والتوجه الى الامام (Frontality) في الرسوم التي تقضي على المعنى الدراماتيكي في الرسم وتفضل أن تؤكد الوجود الروحي لكل شخص بمفرده ، قد درست بعناية في السنوات الاخيرة (١٦) واتضح أنها إن لم تكن من الخصائص البارزة للفن في الامبراطورية الفرتية فانها كانت ميزة منتشرة بصورة خاصة في تلك الجهات . وقد استعملت بصورة عامة في دورا (الصالحية) ونجدها في اشور في العهد الفرتي ، وكذلك في اعمال النحت في الصخر عند الفرتيين وتأثيرها يمتد فيما بعد الى الشرق حتى الهند وتركستان الصينية . أما في الغرب حيث سادت العقلية اليونانية مدة اطول ، فان التوجه إلى الامام في الرسوم بالعكس لا ينتشر إلا في عصر متأخر وذلك بتأثير شرقي جزئي على الاقل ، ولا يلبث ان يعم في بلاد البحر المتوسط حيث يظهر في ذلك الاسلوب الفني في العصور الوسطى الذي نسميه الفن البيزنطي .

وهكذا فان تدمر التي نعتبرها سابقة للفن البيزنطي منذ عصر الميلاد تقريباً تبدو لنا مرة اخرى كمركز امامي للحضارة الفرتية في بلاد بابل .

وقد يكون من الفائدة ان نشير إلى اننا نعلم احدى الطرق على الاقل التي انتقلت بواسطتها التأثيرات الفنية الشرقية إلى تدمر . فالقانون المالي – وهو لايتعلق بالرسوم الجمركية في الامبراطورية الرومانية كما يعتقد البعض وانما برسوم مدينة تدمر الخاصة بالبضائع المستهلكة فيها – (١٧) يحوي فقرة عن استيراد التماثيل البرونزية (١٨) ، وهذه التماثيل هي كما يظهر تلك التي كانت توضع على الاجزاء البارزة من كل عمود تقريباً في الشوارع الرئيسية والساحات العامة والاماكن المقدسة في المدينة . (١٩) والقانون لا يذكر من اين كانت تستورد هذه التماثيل . فهل كانت ياترى تستورد من المدن الاغريقية في غربي سورية ، أو من مدن وادي الدجلة

---

(١٦) بشأن مناقشة هذه القضية والمراجع المتعلقة بها راجع مجلة سيريا م ١٨ (١٩٣٧) ص ٣٧ وما يليها .
(١٧) راجع مجلة سيريا م ٢٢ (١٩٤١) ص ١٦١ .
(١٨) أنظر مجموعة النقوش الأثرية السامية CIS م ٢ رقم ٣٩١٣ سطر ١٢٨ – ١٣٠ .
(١٩) انظر كتاب ر . وود Wood بالانكليزية « خرائب تدمر » (لندن ١٧٥٣) لوح ٣٥ ، وكتاب فيجاند Wiegand بالالمانية عن تدمر (برلين ١٩٣٢) لوح ١٧ ، ٣٧ الخ .

الاسفل ؟ اعتقد انه يمكن اعطاء جواب شديد الاحتمال . فمع ان هذه التماثيل كلها قد انتابها التذويب فانه يمكن ان نتصور شكلها من التماثيل الحجرية القليلة التي نحتها فنانون تدمريون ونقلوها غالباً عن التماثيل البرونزية العديدة المستوردة . جميع هذه التماثيل تخضع لقواعد النحت التدمري بما فيها جمود التوجه إلى الامام ، وعدد كبير منهـا ترتدي اللباس الفرتي . ومن الصعب ان نتصور شيوع تماثيل بلباس فرتي في غربي سورية ، بينما اكتشاف تمثال برونزي كبير بلباس فرتي في موقع شامي Shami في الجبال الواقعة شمالي سوزا (٢٠) يعطينـا شبهاً قريباً جداً بتماثيل تدمر الحجرية ، ولم يعد هنالك من شك بان مثل هذه التماثيل كانت تصب في المـدن الفرتية في جنوبي ما بين النهرين وكانت بموجب فقرة في القانون المالي ، تربط أزواجاً على ظهور الابل وتنقل الى تدمر عن طريق الفرات والبادية .

واستيراد التماثيل على هذا الشكل لايمكن ان يوجد إلا في حضارة لايهتم فيهـا الناس بالحصول على تماثيل وصور تشبه صورتهم الحقيقية بل يكتفون بتسجيل أسمـائهم تحت أول تمثال جاهز وهذه ميزة شرقية في القرون الاولى بعد زمن الميلاد وقد اقتبسها فيما بعد الفن الروماني في العصور الاخيرة ، والفن البيزنطي .

هذا فيما يتعلق بالميزات الشرقية للنحت التـدمري الذي اقتبس غالبا عن جنوبي ما بـين النهرين وكان يتصل بصورة وثيقة بالفن البيزنطي . ولكن لاية درجـة تمكن التأثير الغربي من تغيير الفن الموضعي والصناعات الفنية عموماً ؟ ان نتيجة هذا التأثير لاشك ظاهرة ، الا انها سطحية بوجه الاجمال ، وهي تعطينا مثالا صالحا عن عدم الاستعداد للتأثر ليس باسلوب أجنبي وانما بعقلية اجنبية . فغرف المدافن التدمرية في القرن الثالث تحوي في اغلب الاحيان مشاهد ولائم انيقة يظهر فيها عدد من الخدم والغلمان يأتون بالاواني او باكاليل الزهور للزائرين (٢١) . هذه الرسوم ترينا جهداً عظيما موفقاً لحد ما في ازالة الجمود المعتاد واظهـار الجسم تحت الثياب واعطاء الاشخاص وضعا اكثر مرونة وتعبيراً أكثر نعومة . ولكن التقدم — اذا كان هناك تقدم — مقصور على الشخص بمفرده ، ويكاد لايوجد تنوع في الترتيب يزيد على الصور النافرة القديمة ، وهذا يرينا الى أية درجة كانت المبادىء التي اتبعها النحات

---

(٢٠) انظر مقال اوريل ستاين Stein في المجلة الجغرافية بالانكليزية م ٩٢ (١٩٣٨) ص ٣٢٤ . وللمقارنة بالتماثيل التدمرية راجع مجلة سيريا م ٢٠ (١٩٣٩) ص ١٧٧ وما يليها .

(٢١) راجع مقالة هـ . انكهولت Ingholt في مجلة بيريتوس Beryust م ٢ (١٩٣٥) وخاصة لوح رقم ٢٧ ، قارن مع ماجاء في مجلة سيريا م ١٨ (١٩٣٧) لوح ٤ .

مغروسة في صميم عقليته ولم يتمكن الحكم الروماني الذي دام قرنين ونصف مع كل مارافقه من احتكاك بالغرب من تغيير النحو الغريب في ترتيب الاشكال المنحوتة الذي كان يشارك التدمريون فيه جيرانهم الشرقيين . فهذه الصفوف من الاشكال المتقابلة والمتشابهة التي تبدو جامدة بلا حياة تقريبا والتي انما تقوم بوظيفة زخرفية صرفة بقيت ، كما يظهر ، المثل الاعلى للفنان التدمري كما أنها أصبحت فيما بعد مثلا أعلى للرسام البيزنطي وكذلك للنحات وصانع الفسيفساء .

وكان من نتيجة أعمال الحفر في باحة معبد بعل الكبرى أن اكتشف عدد من البقايا المعمارية المزدانة بنماذج غريبة كل الغرابة عن الزخارف المعمارية المعتادة في تدمر . وهذه البقايا كانت تابعة لمحاريب تذكارية من نوع غريب وضعت في جدران باحة اقدم ولذلك طمرت عندما بنيت الباحة الحالية . والظروف المرافقة لهذا الاكتشاف مع وجود بعض كتابات في الوقت نفسه تدل على ان تاريخها لايتعدى السنوات الاولى من العصر الميلادي او منتصف القرن الاول ق . م في بعض الحالات . وبما ان البقايا الكاملة قد نشرت في مكان آخر (٢٢) فاننا سنأتي هنا على وصف النماذج القليلة التي تتعلق ببحثنا هذا .

ان معظم النماذج الفردية في هذه البقايا ، باستثناء نموذج عقد اللؤلؤ الذي وصفناه سابقا عندما تكلمنا عن اللباس ، هي نماذج من اصل يوناني : كالبيضة والسهم ، والورقة للسبية ، ونماذج الغار المتنوعة ، والخطوط المتقاطعة والملتفة ، ونماذج الكرمة الخ . ومعالجة هذه النماذج الزخرفية معتنى بها ودقيقة ولكنها لا تشبه اي زخرف معماري اكتشف حتى اليوم في العالم اليوناني . واطارات المحاريب تحوي سلسلة متتابعة من الحواشي التي يفضل فيها النوع المحدب بصورة خاصة ، وهذه ظاهرة غير يونانية . والبيضة والسهم من نوع قديم جداً تشبه نماذج اغريقية ايرانية اواخمينية او ما بعدالاخمينية بصورة واضحة . وقد نشرنا هنا القطعة التي بها اكبر فائدة بسبب تشابهها الغريب باطار (٢٣) وجد في خرائب دير جمالبور Jamalpur البوذي قرب ماثورا عاصمة ملوك الكوشان في الهند (انظر لوح ٢٦ رقم ١ و ٢) . فالاطار في الحالتين عبارة عن سلسلتين مسطحتين من الزخارف تفصلها حواش محدبة . والسلسلتان المسطحتان مزخرفتان في القطعة التدمرية بنماذج الكرمة والغار وفي القطعة الهندية بنموذج نباتي هندي وسلسلة مشاهد بوذية ؛ غير ان الترتيب متشابه ويزيد في هذا التشابه ان زخارف

(٢٢) مجلة سيريا م ٢١ (١٩٤٠) ص ٢٧٧ – ٣٢٨ .

(٢٣) انظر كتاب ج . فوجل Vogel الافرنسي « النحت في ماثورا » لوح ٢٢ ، قارنها بلوح ٢٣ آ و ب وبلوح ٥١ ب و ٥٢ ت . راجع ايضا كتاب ل . باخهوفر Bachhofer الالماني « النحت الهندي القديم » لوح ٩٩ ث .

الحواشي المحدبة في القطعة التدمرية (وهي عبارة عن خطوط متقاطعة وملتفة ونماذج اوراق الغار المتقاربة) موجودة ايضاً انما بشكل منحط مشوه على الاقسام التي تقابلها في القطعة الهندية . ومن نواحي التشابه ايضاً الاطراف الضيقة البارزة التي تحيط بالحواشي المسطحة ولذلك يجب افتراض مصدر مشترك لهذا النموذج الزخرفي بكامله . والقطعة التي من ماثورا ترجع الى القرن الثاني م اي بعد القطعة التدمرية بقرنين وهذا ما يفسر لنا انحطاطها .

وهنالك قطعة مفيدة من هذه البقايا (انظر لوح ٢٥ رقم ٢) وتشبه لاول وهلة تاج عامود كورنثي . على ان وضعها غريب عن التقاليد الاغريقية واذا امعنا النظر فيها وجدنا انها تاج شرقي حلزوني الشكل اعطوه مظهراً اغريقياً باضافة اكليل من اوراق طابة الشوك (الاكانتوس) . ومن وجهة معمارية صرفة فان الميزة البارزة هي عدم وجود حاشية علوية ، بحيث يقع ثقل العوارض مباشرة على القسم الحلزوني الملتف من التاج ، على خلاف مبادىء الفن الاغريقي ولكن وفقاً للتقاليد الاشورية والفارسية .(٢٤) كذلك في القسم الاسفل من تاج العامود نلاحظ صفاً من اللؤلؤ المستدير الذي لاحظناه في زخرفة الملابس ، وهنا ايضاً يمكن ان نجد شبهاً لهذه الحالة في نماذج هندية قديمة (٢٥) من برهوت وبوذجايا Bodh Gaya حيث استعملت ايضاً في البناء .

وكيف يمكن تفسير هذه الاتصالات بالهند؟ ان الكتابات الاثرية المكتشفة حديثاً في الساحة العامة في تدمر (٢٦) تخبرنا عن وجود علاقات مباشرة بين تدمر وبلاد السكيثيين وهو الاسم المعروف لممالك الساكا في شمال غربي الهند (٢٧) التي كانت تصلها السفن التدمرية التجارية

---

(٢٤) انظر مثلا بشأن تيجان الاعمدة الاشورية كتاب هـ . ر . هول Hall بالانكليزية « النحت البابلي والاشوري في المتحف البريطاني » (باريس ١٩٢٨) لوح ٤٣ . ولمراجعة مصادر اخرى انظر مجلة سيريا م ٢١ (١٩٤٠) ص ٣١٧ هامش رقم ١ . وقد نشر مؤخراً هرتزفلد تاج العمود الفرثي المزعوم انه كورنثي والذي اكتشف في اصطخر قرب برسيبوليس وهو بدون حاشية علوية (راجع مجلة آرس اسلاميكا م ٩ عام ١٩٤٢ شكل ٥١) وقارن مع مؤلفه « التاريخ الاثري لايران » بالانكليزية وهو سلسلة محاضرات في الاكاديمية البريطانية لعام ١٩٣٤ ص ٤٩ وما يليها .

(٢٥) راجع كتاب ل . باخهوفر بالالمانية « النحت الهندي القديم » لوح ٢٨ عن برهوت ، واللوح ٣٥ عن بوذجايا ، ولوح ٧٤ عن ماثورا . والمثلان الاولان هما قبل نهوض تدمر بمدة طويلة .

(٢٦) راجع مجلة سيريا م ٢٢ (١٩٤١) ص ٢٥٨ وما يليها .

(٢٧) راجع « رحلة في البحر الاريتري » باللاتينية ص ٢٧ ، ٣٨ ، ٤١ الخ . قارن مع « ابحاث على شرف كومون « Mélanges Cumont في « حوليات معهد اللغات والتاريخ الشرقي والسلافي » ٦٠ عام ١٩٣٦ ص ٣٩٧ وما يليها . راجع ايضاً كتاب و . و . تارن Tarn بالانكليزية « الاغريق في باكتريا والهند » عام ١٩٣٨ ص ٢٣٢ وما يليها ، ٣٢٠ وما يليها .

من موانيء الخليج الفارسي بطريق مصب نهر السند . واحدى الكتابات مثلا تقول « ان هذا التمثال الذي لماركوس اوليبوس يارهاي ... قد قدمه التجار الذين سافروا من بلاد السكيثيين في زورق حنينو بن حادودان لانه ساعدهم بكل الوسائل الممكنة الخ . في شهر آذار ١٥٧ م » . غير ان هذه النصوص هي بعد البقايا المعمارية التي نحن بصددها بقرنين ، وعدا عن ذلك فانه يكاد لا يحتمل ان تكون النماذج الزخرفية قد نقلت مباشرة عن الهند بواسطة تدمر ، او عن تدمر بواسطة الهند . وهنالك تفسير اكثر احتمالاً وهو ان تدمر وشمال غربي الهند كانا ينتسبان الى وسط ثقافي واحد او منطقة نفوذ واحدة مركزها على الاغلب في المدن الاغريقية الفرتية في جنوبي ما بين النهرين .

ولذلك يكاد لا يوجد مجال للشك بان البناء التدمري الاول قد وُلد ، كما ولدت ديانة تدمر ولباسها ونحتها ، تحت تأثير الشرق الاغريقي الفرتي . ولم يبدأ معماريو تدمر بتحويل افكارهم نحو انطاكية وبلاد الغرب الا منذ الفتح الروماني في عهد طيبريوس حين بدأوا بتقليد المعابد والشوارع المعمدة في سورية الهلنستية وهكذا اعطوا مدينتهم ذلك المظهر الامبراطوري الروماني الواضح الذي يلفت نظر السائح الحديث .

ولنعط الآن خلاصة البراهين المتعلقه ببحثنا هذا . لقد كانت تدمر في الوقت الذي أصبحت فيه مدينة ، تحت نفوذ ما بين النهرين بصورة تامة . وكانت سياستها تتجه نحو بلاط المدائن . وديانتها كانت متأثرة لدرجة كبيرة بالديانة البابلية . ولباس طبقاتها الفنية كانت تقلد لباس نبلاء الفرتيين او التجار اليونان الذين كانوا يصادفونهم في المستعمرات الهلنستية في وادي الدجلة . ورجال الفن فيها تعلموا النحت والبناء من المصانع الاغريقية الايرانية التي فيها تطور ذلك الفن الخاص الذي بدأنا ندرك انه كان فن الامبراطورية الفرتية . اما التأثير الغربي فاننا لا نلمس منه شيئاً اذ ان الروح الهلنستية في تدمر نفسها في هذه الفترة قد اتت من الشرق .

وفي هذه الفترة كانت توجد مدينة واحدة فيما بين النهرين تكاد لا تذكر امامها جميع المستعمرات الصغيرة التي اسسها ملوك الاغريق . وهذه المدينة هي سلوقية على الدجلة التي قال عنها سترابون (٢٨) انها ثالث مدينة في العالم القديم وانها تأتي بعد رومة والاسكندرية فقط ، حتى انها كانت اكثر ثروة وفخامة من انطاكية على العاصي نفسها . والكتاب الاقدمون يمتدحون سلوقية احياناً كما فعل تاسيتوس (٢٩) لانها احتفظت بروح مؤسسها اليوناني ، وآخرون

---

(٢٨) راجع جغرافية سترابون كتاب ١٦ ، فصل ٢ ، فقرة ٥ (ص ٧٥٠) .

(٢٩) حوليات راجع المؤرخ الروماني تاسيتوس ، كتاب سادس ، فقرة ٤٢ .

ينتقدونها لانها أصبحت كما قال بلوطرخوس(٣٠) مدينة فرتية مترفة . والاثنان غالباً على حق وحضارتها المزيجة التي قد تبدو منحطة اذا ما قيست بالحضارة الاغريقية الصحيحة كانت مقبولة لدى الشرقيين لانها لم تكن غريبة تماماً عنهم وكانت توافق ذوقهم ولذلك فانها كانت على كل حال تخدم مصالح الهلينية اذ كانت قادرة على نشرها . وعندما كانت قوافل تدمر تنحدر نحو الخليج الفارسي فان سلوقية غالباً كانت تستلفت انظارها اكثر من اية مدينة اخرى ، وعندما بدأ التدمريون انفسهم ببناء المباني فانهم بحثوا عن النماذج غالباً في سلوقية . فتدمر على الاغلب هي ابنة روحية لمدينة سلوقية على الدجلة ، ومبانيها الاولى تظهر حضارة تلك المدينة البائدة .

ولكن الرومان لم يلبثوا ان وصلوا تدمر وبوصولهم يظهر ان اهتمام التدمريين اتجه نحو الغرب اي نحو تلك الحضارة التي كانوا حتى ذلك الوقت غير مبالين بها . فقد نقلوا اساليب معابد انطاكية ودمشق وبدأوا ببناء شوارع طويلة معمدة كما رأوها في مدن سورية . ولكن على الاغلب فان هذه التغيرات لم تؤثر كثيراً على اذهانهم . فقد اتبعوا الزي الفرتي في اللباس حتى آخر ايام مدينتهم ، ولم تكن لتوجد نماذج اغريقية يمكنها تغيير ذوق فنانيها . وبقيت مدينتهم معقلا للحضارة الاغريقية الفرتية حتى النهاية .

وفيما يتعلق بالفن البيزنطي فانني لم اقارنه بالفن التدمري الا في احوال قليلة . على انه يمكن مضاعفة هذه المقارنات بسهولة . ويتضح ان العناصر التي اشترك فيها الفن التدمري والفن البيزنطي هي تلك التي ظهرت في اول ايام تدمر ويظهر انها كانت مأخوذة من سلوقية على الدجلة وخاصة جمود النظرة الامامية في النحت . على انه من المؤكد ان هذه العناصر لم تدخل سورية الغربية ، بصورة يُشعر بها على الاقل ، قبل سقوط تدمر في ٢٧٣ م ، ولذلك لا يمكن القول بان تدمر كان لها تأثير مباشر على هذا التطور . والذي يبدو ان الامور حصلت على الوجه التالي : كانت تدمر ، كما رأينا ، مركزاً امامياً للاتجاهات الفنية التي كان مركزها سلوقية على الدجلة على ما يظهر . على ان البراهين القليلة التي لدينا تفيد بانه كان يوجد مراكز اخرى ، احدها مثلا في سميساط في وادي الفرات الاعلى (٣١) حيث زخرف ملك مقاطعة كوماجين ضريحه في القرن الاول بنقوش بارزة كثيرة الشبه بنقوش تدمر في أسلوبها . وكان يوجد مركز آخر في هيرابوليس (منبج) (٣٢) في شمالي سورية حيث

---

(٣٠) راجع تراجم بلوطرخوس : ترجمة كراسوس ، فقرة ٣٢ .

(٣١) انظر كتاب ك . هومان وبوخشتاين الالماني « رحلات في آسية الصغرى وشمالي سورية » (برلين ، ١٨٩٠) لوح ٣٥ وما يليه .

(٣٢) مجلة سيريا م ٢٠ (١٩٣٩) ص ١٨٣ وما يليها .

لدينا برهان ضعيف انما لا يمكن الشك فيه عن نفس الاسلوب . وقد كانت تقاليد الفن الاغريقية الرومانية بقوة كافية في سورية حتى زمن هدم تدمر في نهاية القرن الثالث حتى وقفت في وجه طغيان الاتجاهات والازياء الاسيوية ، وهذا واضح في تدمر حيث الاثر الاعريقي يشعر به بوضوح في معالجة الاشكال الافرادية بالرغم من ان الروح العامة في النحت هي روح شرقيـــة . وفي العلاقات بين تدمر وسورية الهلنستية في نهاية القرن الثالث كانت سورية الهلنستية بالتأكيد هي التي تلعب الدور الاول . وقد بدأ اضمحلال التقاليد الاغريقية الرومانيـة في سورية فقط في القرن الرابع في عهد قسطنطين تقريباً وفي ذلك الوقت فقط تمكنت الروح الاسيوية من التقدم نحو البحر المتوسط .